

# جوانب من حياة المغول المعيشية

د . سعد بن محمد حذيفه الغامدى

أستاذ مشارك

قسم التاريخ - جامعة الملك سعود

الرياض

حرر في : ١ شعبان ١٤٠٨ هـ

٩ مارس ١٩٨٨ م



## ١ - غذاء الانسان في المجتمع المغولي

### مقدمة :

حينما برز جنكيز خان على مسرح أحداث التاريخ ، في الجهة الشرقية من قارة آسيا ووسطها ، ثم في غريبيا فيما بعد ، كان الانسان المغولي يعتبر في قائمة الأنسان البدائي ، في جميع مناحي شؤون حياته ، وخاصة ما يتعلق بأكله وشربه . ويعتبر ذلك جزءاً من التقليد والعادة التي درج عليها ، فقد ظل على هذا المنحى حتى بعد أن إحتك بعالم زمانه المتحضر ، وذلك في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد . فعلى الرغم من اتساع رقعة دولتهم ، والتي شملت كافة أقاليم وشعوب الأمم الأسيوية تقريباً ، ومدت نفوذها إلى أقطار أوروبا الشرقية . والوسطى ، إلا أن مسألة التحضر والتطور في نوعية ، وطريقة أكله وشربه ، لم يطرأ عليها تغيير كبير ، في مجتمع المغول ، في موطنهم الأصلي ، وحتى العصر الحديث . فما كان ينطبق عليهم ، في أيام جنكيز خان ، نجده يمثل في كثير من مجتمعاتهم في هذا القرن ، وخاصة بين أوساط مجتمعاتهم البدوية ، فيما بين القبائل التي تسكن المناطق شبه الصحراوية ، أو في مناطق الغابات ، والأدغال . لذلك فالقارئ لأى تقرير عنهم في العصر الحديث يجد أن الحياة الاجتماعية والناس لا يكادون يختلفون عما يقرأه عنهم في كتابات المؤرخين ، والرحالة ، في زمن جنكيز خان وأبنائه وأحفاده من بعده ، قبل سبعة قرون مضت . فهو مجتمع بدوى ، إلى البدائي أقرب منه إلى الانسان الأكثر تمدناً . إذ أنه يعتمد كلية على حيوانه ، الذي يقوم على تربيته ، ويحلبه ويصربه ، أو الذي يصيده للحمة وجلده وفروته ، للأكل ولللباس<sup>(١)</sup> .

(١) صنف في أواخر الثمانينات من القرن العشرين أربع عشر ملحقاً عن المغول في الوقت الحاضر وهو

يصعد المغول ، وحياتهم ، فلا تكاد تجد فرقاً بين ماضيهم وحاضرهم ، والكتاب هو

"Mongolia in Search of Marco Polo and other adventures" for Micheli Silvano in Italian Language translated into English by : B. Penman, London, 1967

لذلك فإننا سنتطرق في الصفحات القليلة التالية من هذه الدراسة إلى جزء من حياة المجتمع المغولي ، وهذا الجزء هو أهم مقومات الإنسان ، ألا وهو « طعام المجتمع المغولي وشرابه » . يقول المؤرخ المسلم ، الذى عاصر المغول ، وزحفهم ضد العالم الإسلامى ، عز الدين بن الأثير ، فى معرض كلامه عنهم بأنهم : « ... » ، ولا يحرمون شيئاً ، فأنهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب ، والخنزير وغيرها ... (١) .

لقد أصاب مؤرخنا ، فيما رواه عن المغول ، بل أنه لم يذكر شيئاً يأكله المغول ، سواء من لحم الكلاب ، والخنزير ، حيث ربما أنه لم يكن يتصور بأنهم يأكلون لحوم البشر ، بل وحتى مشيمة الحيوان بعد الولادة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، كما سيرد معنا بعد قليل ، وهذا ما يحدثنا به رجل عرفهم من على قرب ، وتعامل معهم ، وعاش بين ظهرانيهم ، وهو « John De Plano De Carpini » . حيث يقول بأن طعامهم يتكون من كل شيء يستطيعون أكله ، فهم يأكلون الكلاب ، والذئب ، والثعالب ، والحيول ، وعندما تجبرهم ظروف الجوع والضرورة ، فإنهم يقتاتون على لحوم البشر . ثم يردف « جون الكريينى » روايته تلك من أنهم ، أثناء الفترة التى كانوا يحاصرون « الخطا » (٢) ، نفذت عليهم المؤن الغذائية ، واستمر حالهم على ذلك لمدة طويلة . وعندما لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، شرعوا يأخذون من بينهم رجلاً من كل عشرة رجال . ثم يذهب هذا السفير البابوى إلى رواية أبعد من هذه بكثير ، فيقول بأنهم يأكلون ما يخرج من أنثى الخيل ( الفرس ) من أوساخ عندما تلد مهرها ، يعنى المشيمة وغيرها . بل ليس هذا فقط ، فقد شاهدتهم يأكلون القمل ، ويذكر بأنه عندما يسأل بعضهم عن ذلك كانت اجابته :

(١) عز الدين بن الأثير ، « الكامل فى التاريخ » بيروت ، دار صادر ، ج ٩ / ٢٩٠ .

(٢) يفصّل ذلك أثناء حصار المغول عاصمة « ترطول » ، جن « شمال الصين » وهم قد عرفوا أراضيها لدى الأوربيين فى ذلك الوقت « الكاتى Cathay » . وقد غزاهم جنكيز خان ، وأتباعه عاصمتهم ، بكون « فى صفر عام ٦١٣ هـ حزيران ، يونيو سنة ١٢١٥ م » . راجع ذلك فى كتابنا « سقوط الجولدة العباسية » ، ص ٧٨ . وبعدها ، وما ورد فى تلك الصفحات من الخواشي

« لماذا لا أكل القمل ، في حين أن يتغذون على لحم ابني ويمصون من دمه » .  
ويذكر بأنه شاهدتهم يأكلون القتران (١) .

أما رواية « ويليم البريكي القس Friar William of Rubruck » (٢) فإنها تعتبر أكثر تفصيلاً ، في هذا الموضوع ، من غيره ممن عرف المغول . وقبل أن أتعرض لما ذكره هذا السفير الملكي في هذا الشأن ، يروق لي أن أشرح للمقارئ والباحث الكرميين شيئاً عن هذا الرجل ، وأسباب رحلته إلى منغوليا ، وبعضاً مما قيل عنها .

قام الملك لويس التاسع ، ملك فرنسا فانتدب هذا القس إلى بلاط خانات المغول ، فاستغرقت رحلته حوالي سنتين ( ٦٥١ — ٦٥٣ هـ / ١٣٥٥ م ) . فهو ممن عاصر المغول ، وسكن معهم في عاصمتهم « قرا — قروم » وغيرها لفترة كافية ، عرّفته عليهم عن كثب ، وأصبح ما كتبه عنهم ، في رحلته إليهم ، من أهم مصادر معلوماتنا التاريخية ، والعلمية بشكل عام . لقد حاول I. De Rachewiltz « في مصنف له أن ينفي دور الملك لويس التاسع في مسألة إرسال ذلك القس ، إلى مهمة سيانية ، كان الغرض منها توحيد الجهد مع المغول ضد المسلمين وأخذ بيت المقدس منهم : والمصنف بذلك أراد نفي الرأي الشائع بين المؤرخين في هذا الخصوص . ومع ذلك ، فإن الحقيقة تبدو جلية في ناحيتين :

١ — أن هذا القس كان مصاحباً للملك الفرنسي في حملته الصليبية الفاشلة ، والتي بدأت بمصر ، فكان نصيبه الأسر ، بعد هزيمة جيشه على أيدي المماليك . ورغم كرم المسلمين باطلاق سراحه ، فقد كان حقه دقياً على المسلمين ، ولو جاءه شيطان لتحالف معه ضدهم . لذلك فقد أرسل « لويس » « القس ويليم » لأنه يحمل نفس الروح العدائية

Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, PP : 16.

(١)

(٢) فيما يتعلق بمصنف هذا السفير ، أنظر كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص . ص : ٣٩ — ٤٠ .

للمسلمين ، ليكون رسوله إلى خانات المغول ، لعنه نجد عندهم ما كان  
يبتغيه ، وذلك لايجاد حلف شرق وغرب ضد المسلمين<sup>(١)</sup> .

٢ — أن هذا المصنف قد ناقض نفسه في ناحيتين :

١ — أثبت صحة صحة القس لذلك الملك القس هو الآخر ، وهذه  
حقيقة لا يمكن إنكارها ، أن هو حاول ، ثم بقاؤه مع الملك في فلسطين  
حتى سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م ، أي أن ذلك يعني أنه ظل مع الملك قرابة  
أربع سنوات ( ٦٤٦ — ٦٥٠ هـ/١٢٤٨ — ١٢٥٣ م ) ، فلا يمكن  
أن يذهب ذلك القس إلى منغوليا ليجد أو يبحث عن فلان أو غلان من  
رجال الدين المسيحيين ، ممن كان قد ذهب إلى منغوليا ، ولم يعد ، في  
محاولات لتبصير المغول ، وعقد أحلاف معهم . وقد عرف ما آلت إليه  
رحلات السابقين من الفشل الذريع ، وهذا ما ذكره هذا المصنف أثناء  
كلامه عن رحلة « الكريتي » في نفس الصفحة .

ب — لقد ذكر المصنف أن الملك قد وصلته أنباء تفيد أن أميراً مغولياً قد  
اعتنق المسيحية ، وأن هذه المعلومات قد جاءت إلى الملك من جهات  
مختلفة . على حد تعبير هذا المصنف<sup>(٢)</sup> . لقد كان ذلك الأمير المغولي  
الذي اعتنق المسيحية ، هو « سرتق بن باتوين جوجي بن  
جنكيز خان » . ومن المعلوم جيداً أن مسألة اعتناق هذا الأمير المغولي  
للمسيحية تعني وقوف القوم إلى جانب الملك الفرنسي ضد المسلمين .  
وفي الحقيقة فإن في سفارة ذلك الراهب تكمن مهمة فتح باب

(١) يستطيع القاري والباحث الكرديمان أن يرجعا إلى ما كتبه « ولهم » في رحلته تلك عن المسلمين في  
آسيا الصغرى ، لطبعاً على حقد سيده ، الذي انعكس ذلك فيما كتبه هو في ص : ٣١٧ . راجع  
كذلك ما تناه في هذا الخصوص في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص : ٢٦٢ —  
٣٦٤ .

(٢) Friar William of Rubruck, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of  
the World, 1253 - 55", with two accounts of the earlier journey of John of Plano De  
Carpini, Ed. by Dawson, P. 217.

I. De Rachewitz, "Papal Envoys to the Great Khan", London, 1971, P. 125 (٣)

المفاوضات معهم لايجاد حلف مع المغول ضد المسلمين . كيف لا ، ونحن نعرف مدى تثبت الأوربيين بأى حليف ضد المسلمين ، فقد انتشرت بينهم أساطير كثيرة ، وما أسطورة ذلك الملك المسمى المشرق ، الذى سيقدم من الشرق ، ويهزم المسلمين ، ويأخذ منهم فلسطين وبيت المقدس ، ذلك الملك الأسطوري هو ما عرف في مصنفات المؤرخين الأوربيين بـ « بريسترجون Prester John » . وقد طرقتنا هذا الموضوع بنوع من التفصيل فى بحث لنا سابق ، كما طرقت مؤرخون أوربيون ، فلا بد أن يكون فى تخيلة « لويس التاسع » صورة ما تزال حية لذلك الملك المسمى الأسطوري ، الذى سيقدم إليه من الشرق ، ويحالفه ، ويهزم المسلمين<sup>(١)</sup> .

#### ب - طعام المجتمع المغولى :

نرجع الآن إلى موضوعنا « طعام المجتمع المغولى » ، وإلى ما أورده لنا « القس الراهب ويليم البركى » فى هذا الشأن ، حيث يذكر بأن طعام ومؤن المغول تتمثل حتى فى الحيوانات الميتة ، وبدون استثناء ، وأن الحيوانات والمواشى ، التى تتوفر بأعداد هائلة هناك بشكل خاص ، كانت تموت وبأعداد كبيرة ، فلا يترددون على الإطلاق فى أكلها . إلا أنهم ، مع ذلك ، لا يهتمون فى فصل الصيف ، بأى نوع من أنواع الأكل أو اللحم ، أو الحرص فى الحصول عليه ، لأن « الكوزموس Kuzmos »<sup>(٢)</sup> يوجد بكثرة هائلة . لذلك فإنهم فى القليل النادر يأكلون لحماً ، بل أن ذلك يترك للظروف ، وحسبها

(١) فيما يتعلق بذلك الملك المسمى الأسطوري « بريسترجون Prester John » ، انظر : "Travel and Travellers of the Middle Ages" . Ed., by : A. Newton. London, 1930, Chapter IX.

كذلك كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ر . ص . ص : ٣١٨ وبعدها : كذلك مقالتنا التى بعنوان : « معركة قطون ، أسبابها ونتائجها » مجلة «العصر» ، ص . ص : ٧٥ — ٩٤ فى المجلد الثانى ، الجزء الأول ، عام

(٢) هو حبيب العرس لمعلومات عن هذا النوع من الشراب الففضل لدى مجتمع المغول ، انظر : Rubruck, "The Journey" . Ed., Dawson, P. 98.

ينفق ، أى عندما يقدمه إليهم أحد ، أو ما قد يقع تحت أيديهم من الصيد ، أكل ذلك حيواناً ، أم طيراً ، قد يحصل لهم عن طريق الصدفة . أما إذا صادف ومات ثور ، أو حصان ، فأنهم يُسرحون لحمه إلى شرائح طويلة ودقيقة ، ثم يعنقونها لتعرض لضوء وحرارة الشمس ، ولهبوب الهواء ، حتى تُجفف بهذه الطريقة ، دون أن يصبح لها رائحة كريهة ، وحتى بدون أن يضيّقوا عليها أملاحاً ، إذ أنها لا تتعدم ولا يصيبها تلف . أما الأمعاء ، فأنهم يضعون بداخلها مادة مأكولة ، فيصبح لديهم عمى ، ويعتمدون أكلها طازجة . أما بقية اللحم ، فأنهم يحتفظون به إلى فصل الشتاء ، حيث يصنعون من جلود الثيران جراراً عظيمة الحجم ، وذلك بتحفيظها بالدخان ، وبطريقة فنية . كما يقوم المغول بطبخ طعامهم على النار ، حيث يجلسون حولها ، الرجال على طبقاتهم ، من الرئيس ، أولاً ، أو الامبراطور ، إلى الفقير . ويتكون وقود نارهم ، بصفة أساسية ، من روث الأبقار ، والخيول ، وغيرها ، بعد أن يكون جافاً<sup>(١)</sup> .

يذكر « ويليم » أن الرجل المغولى يمكنه أن يطعم خمسين شخصاً ، وأحياناً مائة ، من لحم شاة واحدة فقط ، حيث يقوم بتقطيعها ، بعد أن يقدها نصفين من الصدر ثم يذبحها من حلقها ، حيث يضع اللحم بعد طبخه في اناء صغير ، ثم يقطعها برأس سكينته ، أو شوكة مخصصة لهذا الغرض<sup>(٢)</sup> . بعد الانتهاء من ذلك يتناول الرجل ، القيم على ذلك العمل ، كل شخص عنده لقمة أو لقمتين ، حسب العدد ، وكمية النعم المتوفرة . إلا أنه لا يشرع في تقسيم اللحم إلا بعد أن يبدأ برئيس القوم أولاً ، حيث يأخذ الكمية التى يرتضيها ، ثم يوزع الباقي على الحاضرين . أما إذا ما أعطى ذلك الرئيس أحداً قطعة أو شيئاً من ذلك اللحم ، فله أن يأكله ، وله أن يعطى شيئاً منه إلى من يشاء . وإن أراد أن يأخذه معه إلى منزله فله ذلك ، حيث يضعه في جراب يحمله معه لوضع أشياءه من هذا النوع بداخله . ثم يردف هذا الرحالة والسير قولته ، أما العظام ، فإن كان لديهم وقت كافٍ في مجلسهم ذاك ، فأنهم يقرضونه

(١) أنظر المصدر السابق ، ص . من : ٩٧ - ٩٨

(٢) لمعلومات عن طريقة ذبح المغول لحيواناتهم ، أنظر الجيوس ، « جهانكشاي » ص ٣٠٦

بأسنانهم ، ويستخرجون منه المخ ، وإذا لم يكن لديهم ، في مجلسهم ذلك ، متسع من الوقت فانه يوزع على بعض الحضور ، لأخذه معهم ، وبعضهم يعطيه إلى خادمه ، ان كان موجوداً معه ليحفظ به له ليقرضه فيما بعد ، ثم يستخرج ما بداخله من المخ قبل اعطاء باقى العظام إلى الكلاب ، وعلى هذا الأساس فان طعامهم لا يتلف منه حتى القليل ، الذى يعتبره الغير من غيرهم من الأمم شيئاً يتلف (١) .

أما « جون الكريبنى » فردد القول ، في هذا الشأن أن المغول لا يملكون خبزاً ، ولا يأكلون أعشاباً ، ولا فاكهة . فلا أكل لديهم إلا اللحم ، ومع ذلك فلا يأكلون منه إلا بكميات قليلة .

لهذا فلا تستطيع أمة من الأمم ، غيرهم ، أن تعيش على ما يعيش عليه المغول لفته وزهادته . يتناول المغول أكلهم بأيديهم ، التى تصبغ بالدهنيات أثناء عملية الأكل . وبعد الانتهاء فانهم لا يغسلونها ، بل يمسحونها في ملابسهم التى يرتدونها ، وخاصة في ذلك الغطاء أو اللباس المصنوع من الجلد الذى يغطى سيقانهم ، أو في العشب ، أو ما شابه ذلك . أما القليل منهم ، وخاصة من الناس ذوى المكانة الكبيرة ، فرمما يؤتى لهم بقطعة قماش ، فيمسحون بها أيديهم من الدهنيات بعد الانتهاء من أكل اللحم (٢) .

وعندما يأكلون بشكل جماعى ، فان الرجل قد يقطع اللحم إلى قطع صغيرة ، فيقدم إلى كل واحد قطعة برأس سكينته ، فيعطى البعض منهم كثيراً أو قليلاً ، تختلف باختلاف مكانة الرجل المُطعم (٣) .

أما ما يتعلق بغسل الأواني ، التى يستخدمونها لطهى طعامهم ، فان المغول يضمون اللحم مع المرق ، وبعد ذلك لا يغسلونها . وإن أرادوا تنظيفها فانهم

Rubruck, "The Journey...", P : 98.

(١)

Carpini, "History of the Mongol" Ed., Dawson, P . 16.

(٢)

Rubruck, "The Journey...", P : 98.

(٣)

يشطفونها بالمرق الذى طبخ فيه اللحم ، فيعيانون ذلك المرق إلى الأنا، الذى نقل فيه اللحم والمرق بعد الانتهاء من طبخه ، كما أن الملاعق والشوك تظف بنفس الطريقة .

يعتبر الإنسان المغولى من الذئب ، أن يتلف أى طعام أو شراب ، بأية طريقة كانت ، فالعظام لا تعطى إلى الكلاب إلا بعد قرض ما يستطاع قرضه أولاً ، ثم أخذ ما تحويه من المخ ، ثم بعد ذلك تعطى الكلاب فضلات العظام<sup>(١)</sup> .

ومع أن المغول تحضروا ، بحكم تقليدهم للشعوب التى كانت أكثر تحضراً منهم ، واعتناهم لأديان مختلفة باختلاف الشعب أو الشعوب التى خضعت لنفوذهم ، إلا أن نوعية اللحوم ، المكونة بصفة رئيسية من لحوم الخيل ، والطريقة العامة فى الطبخ ، وكيفية تقطيع اللحم ثم طريقة تقسيمه ، مازالت هى طريقة الآباء والأجداد ، التى كانت متبعة فى الموطن الأصيل فى منغوليا .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا ابن بطوطة ، بعد قرن ونصف من خروج المغول من عزلتهم شرق جبال « الطاي » وشمخان صحارى منغوليا ، قائلاً بأن طعامهم من لحوم الخيل والغنم حيث يقدم مسلوقاً ، وبعد أن ينضج يأقى « الباروجى »<sup>(٢)</sup> وهو مُقَطَّع اللحم ، وعليه ثياب حرير ، وقد ربط عليه فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أعمادها ، ويكون لكل أمير باروجى ( بارووجى ) ، فإذا قدمت المائدة تُعد بين يدي أمره ، ويؤقى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع « الباروجى » اللحم قطعاً

(١) Carpini, "History...", PP. 16 - 17.

(٢)

(٢) صفة هذه الكلمة « بارووجى » أو « بوكايون » .. وهى كلمة منغولية - تركية ، وتعنى

الشرف على الطعام والشراب ، وقد كانت من الوظائف المهمة التى لا يتركها « جنكيز خان » (ومن بعده من خلفائه ) إلا إلى من يثق فيه . . . . هذا الموضوع أنظر المؤلف الروسى الكبير :

W. W. Bartold, "Turkistan Down to the Mongol Invasion", Gibb Memorial Trust New Series, V. London, 1968 & 1977, P. 362 & Note : 4.

صغاراً ، ولحم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم ، فانهم لا يأكلون منه إلا ما أختلط بالعظم (١) .

### ح - ما يشربه المجتمع المغولي :

أما ما يتعلق بما يشربه الفرد في ذلك المجتمع الغريب ، في كثير من مناحي حياته ، فيعتبر الإنسان المغولي حليب الفرس شرابه المفضل ، حيث يحل قائمة أنواع ما يشربه . فهو يشربه بكميات كبيرة جداً ، فهو لا يكاد يشرب غيره من السوائل إذا ما توفر هذا النوع من أنواع شرابه ، أو يمكن أن يحصل عليه بسهولة . لهذا السبب ، على ما يبدو لنا ، جعل الرجل من أهم مهامه العائلية العناية بالخيول ، وحلب أفراسها وصرجها . فمعدل ما يملكه الرجل ثمان عشرة فرساً لشرابه ، حيث يقوم المغولي بفرس وتدين في الأرض ، على بُعد مناسب ، ثم يقوم بإصالحهما بحبل طويل ، حيث يربط فيه مهر فرسه التي يرغب حليبها ، لكي يحصل الرجل منهم على أية كمية من حليب فرسه . وفي الصباح الباكر يأتي بتلك الفرس إلى مهرها المربوط في ذلك الحبل ، فتأنس بالتوقف بجانبه ، فتعطي حليبها لمن يقوم بحلبها ، والذي غالباً ما يكون من الرجال . أما إذا كانت الفرس جموحاً ، ولم تسمح لأحد بحلبها ، فإنها تربط ، ويؤتى بمهرها ، ويسمح له بالرضع منها قليلاً ، ثم يبعد عنها جانباً ، ويحتل الرجل الحالب مكان المهر ، حتى ينتهي من حلبها . وهكذا ، تُحلب فرس بعد أخرى حتى يتجمع لديه كمية كبيرة من الحليب .

يقوم بعد ذلك بوضعه في اناء جلدي كبير « السقاء » مخصص لهذا الغرض ، ثم يقوم بمخضه بواسطة عصاة غليظة جداً ، ذات رأس كُرأس الرجل ، مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ، يستمر في هذه العملية ، حتى يستخلص منه ما تكون عليه من الزبدة ، ثم يشرب ذلك اللبن .

يصف لنا « وليم الزبركي » مذاق هذا النوع من اللبن . فيقول بأنه يلدغ

(١) ابن بطوطة ، « رحلة ... » ص : ٣٣٠ .

لسان المرء أثناء الشرب ، فله طعم كقطع الخل ، وعندما يتوقف عن الشرب ، فإنه يترك على اللسان مذاقاً كقطع عصارة اللوز ، ويحدث عند شربه نشوة روحية وعقلية عجيبتين . ثم يردف « ولیم » القول ، بأن هذا اللبن قد يشمل الرجل الضعيف الاتزان<sup>(١)</sup> . إلا أن ابن بطوطة يقول لنا بأنه ذاقه ، ولكنه « ... لا خیر فيه ... »<sup>(٢)</sup> . أما الرحالة الأيطالی « ماركو بولو » فيذكر لنا بأنه جيد جداً للشرب ، حيث يعرفون جيداً كيف يصنعونه بطريقة ممتازة<sup>(٣)</sup> .

ان هذا النوع من الشرب هو الشرب المفضل للسواد الأعظم في المغول . أما شرب الخاصة منهم ، وهم الرؤساء وعلية القوم ، فإنه يُصنع لهم « قرا — كزمس Qara - Kuzmos » أي « شرب الكزمس الأسود » . حيث يجلب حليب الفرس بعد حليه ، ثم يخض حتى يترسب في قاع إنائه كل مادة تجمعت أعلاه ، ويبقى كل شيء نقي إلى أعلاه ، ويصبح لونه مثل لون مصل اللبن ، أو المسك الأبيض ، فتعطى الخثالة إلى الخدم ( وهي مادة بيضاء اللون وذات تأثير لارتخاء الأعصاب والخمول ثم النوم ) أما المسائل الصافي ، فيقدم إلى الرؤساء وعلية القوم كشرابهم المفضل . ويصفه « ولیم البركی » بأنه شرب ممتاز ، ومنشط جداً ، وهو بعكس ما يقدم للمخدم<sup>(٤)</sup> .

تورد لنا بعض مصادر مادتنا شدة حب المجتمع المغولي للحليب الأفراس . ففي هذا الخصوص ، يورد لنا « البركی » رواية حول الكمية الكبيرة التي كان يستهلكها واحد من أمرة جنكيز خان . كان ذلك الأمير هو حفيد جنكيز خان « باتوين جوجی » ، حيث كانت له مملكة والده التي ورثها هو الآخر عن جنكيز خان . ولقد لعب « باتو » هذا دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً

Rubruck, "The Journey...", Ed., Dawson, PP: 98-99. (١)

(٢) ابن بطوطة ، « رحلته » ص : ٣٣٥ .

Marco Polo, "The Description of the World", Vol. I, P: 171 also: Spuler, "The Mongol History", P: 175. (٣)

Rubruck, "The Journey", P: 99. (٤)

في حياته ، فقد كان قائد جحافل المغول ، أثناء اجتياحها لغرب آسيا وشرق أوروبا ، في حملتهم المشهورة ، كما كان هو الذي يوصل فلاناً أو علاناً إلى كرسي الامبراطور ، لذلك كانت تسميه مصادرنا الأوربية بـ « صانع الملوك »<sup>(١)</sup> .

يذكر مغير الملك لويس التاسع الفرنسي ، « وليم البربركي » بأن « باتو » كان لديه ثلاثين رجلاً ، وهم مخصصون لترويد سيدهم « باتو » بما يحتاجه من حليب الأفراس ، وكان كل رجل منهم يحلب حليب مائة فرس . وهذا يعني أنه كان يجمع حليب ثلاثة آلاف فرس ، في كل يوم ، وهذا بخلاف أنواع الحليب التي تؤخذ من مصادر غير هذا المورد<sup>(٢)</sup> .

نعل هذا الراوية الأوربي ، الذي شاهد هذا بعينه ، وكان ممن قابل « باتو » يعني أن هذه الكمية من الحليب هي ما يحتاجه ذلك الأمير المغولي هو وأسرته بكاملها ، وكذلك كبار رجال بلاطه ، وقادة جنده ، والقيمون على خدمة منزله ، وهم يُعدّون بالآلاف . وذلك لمراتبة « باتو » الساقطة ، بين الأمراء المغول ، حتى أنني لا أجدني مبالغاً إذا قلت بأن « باتو » كان يعتبر أعلى مكانة من الامبراطور « منكو » ، الذي كان على عرش المغول ، فقد كان يخطب وده ، ويحشى بأسه أكثر من أي أمير مغولي آخر .

أما إذا لم يكن لدى المرء منهم حليب فرس ، فانه يستعوض عنه بأنواع أخرى من الحليب ، مثل حليب الضأن والماعز ، وحليب الأبقار ، وحليب النوق<sup>(٣)</sup> .

يصنع المغول السمن من حليب الأبقار بشكل أسامي ، بعد أن يستخلصون الزبدة ، وذلك بعد محض الحليب بالطريقة المذكورة أعلاه ، ثم

(١) لعمومات في هذا الموضوع ، راجع « سقوط الدولة العباسية » ص ١٤٨ - ١٥٦ ، و ١٦٠ - ١٦٣ وخاصة المرجع والمصادر الواردة في حواشيه .

(٢) Rubruck, "The Journey...", P: 99.

(٣) Rubruck, "The Journey...", P: 99.

يأتون بالزبدة فيخلونها فتصبح بعد الغليان سمناً . ونتيجة لذلك ، وكما هو معروف ، لا يطفئ السمن حيث سبق أن غُلي على النار بطريقة جيدة ، ويحفظون به إلى وقت الشتاء ، حيث يقل إنتاج حيواناتهم من الحليب .

كذلك فإن الأقط يصنع أيضاً من لبن الأبقار ، وذلك بالطريقة التي نعرفها نحن هنا ، فيغلى اللبن حتى يخثر ، ويصبح مادة جامدة ، ويجعل في شكل أقراص صغيرة ، ثم يوضع في العراء عرضة للشمس والهواء ، حتى ينشف حيث يصبح جافاً ويابساً جداً ، ثم يخزن في أوعية خاصة به ، ويحفظ به حتى فصل الشتاء عندما تقل ، بل وتندر ، المنتجات الحيوانية في هذا الفصل الشديد البرودة ، والقليل في مراعيه . إلا أن المغولي لا يأكل الأقط ، وإنما يتبع الطريقة الأخرى ، وهي أنهم يضعونه في اناء ثم يضيفون عليه ماءً حاراً ، فيحركونه جيداً حتى يذوب في الماء ثم يشربونه .

أما في فصل الشتاء ، وعندما يقل إنتاج حيواناتهم من الحليب ، فانهم يصنعون شراباً ممتازاً من حبوب الأرز ، أو الدخن أو القمح ، إذ أنه يجلب اليهم من الأقطار الزراعية المجاورة في الغرب أو الجنوب ، ويصنع له شراباً من العسل ، لأن الانسان المغولي يذلل جميع الوسائل والمحاولات لتلا يشرب ، على الاطلاق ، الماء كما نشربه نحن ، بطريقة عادية ، وبدون أن يخلط عليه شيئاً آخر قبل أن يشربه<sup>(١)</sup> .

أما طريقة صنع شراب الحبوب فانهم يقومون بغلي حبوب الدخن ، أو الأرز ، أو القمح ، في ماء ( وهذا فقط عندما يتعدم وجود الحليب بأي نوع ) حتى يصبح خائراً ، إلا أنهم لا يأكلونه ، بل يشربونه ، وهو مادة سائلة ، بكميات قليلة جداً — كأساً أو كأسين — عند الصباح ، ولا يأكل شيئاً طوال النهار ، وفي المساء يأكلون ما يحصل لهم من لحم بعد طهيه طهيّاً جيداً ، ويشربون المرق بعد ذلك .

John Carpini, "Mongol History", Ed., Dawson, PP 16 17; Rubruck, "The (1) Journey...", PP : 95 - 101.

في الأوقات التي يجتمع فيها المغنون ، لمناسبة معينة ، صغيرة كانت أم كبيرة ، فإن عوامل الفرح الصاحب بكاد يطغى على اجتماعهم ذلك ، فيكون ما يشربون هو الشيء الوحيد الذي يكون أهم الموجودات بينهم ، وقد يكون هو العامل الأساسي والداعي إلى ذلك الاجتماع . ففي الوقت الذي بشرع فيه السيد الكبير بتناول شرابه فإن أحد الخدم يصرخ بأعلى صوته « ها » ثم يدق أصحاب الموسيقى آلاتهم ، ويبدأ الفرح ، والرقص والغناء . ويستمررون على ذلك رماً ، ثم يذهب كل واحد إلى وجهته .

أما عندما يكون هناك مناسبة ، أو احتفال كبير ، فانهم يجتمعون بأعداد كبيرة ، واجتماعهم يصبح بشكل أوسع . وهنا أيضاً ، يكون الشراب ، لا الأكل ، هو الشيء الأساسي ، أيأ كان ذلك الشراب ، حليياً ، أو لبناً ، أو ماء مخلوطاً بالأقط ، أو شربة ( وهي المصنوعة من الحبوب ) . وتعلو صيحاتهم ، ويصفقون ، ويرقصون على أصوات الموسيقى ، حيث يرقص الرجال أمام السيد ، أو رئيس القوم ، بينما يرقص النساء أمام زوجة ذلك السيد ، أو كبير القوم ، وهكذا يستمر الوضع لوقت قد يطول ، وقد يقصر ، ثم يتوقف الموسيقيون عن العزف ، فيقف الجميع لفترة قصيرة جعلت للاستراحة والشرب .

في بعض الأوقات يحثون شخصاً ما على أن يشرب حتى وأن لم يكن لديه رغبة . فليس هو جيفاناً ولا عطشاً ، وأنه متعكر المزاج ، أو أن لديه مشكلة غطت سماء ليله أو نهاره بسحابة سوداء ، جعلته يعزف عن مشاركة القوم ليلتهم أو نهارهم السعيد . وهنا يذهب بعض الصحاب ، وفي لقسية مرحة ونشوة عالية ، إليه ، ويتقدمون رويداً رويداً حتى يصلون إليه فيحرونه بشدة من كلتا أذنيه ، فيفتح فاه ويصبح بنغمه فاتحاً ، ثم يصفقون ويرقصون أمامه فيقف رجلان إلى جانبيه ، وثالث أمامه ومعه كأس من الشراب الذي يتناولونه في ليلتهم تلك أو في نهارهم ذلك ، فيرقصون ويغنون حوله جيئة وذهاباً ثلاث أو أربع مرات ، وفي كل مرة يتناولونه شربته حتى تصبح قريبة من تناول

يده ، فيرجع حاملها إلى الوراء ، للضحك والمزاح حتى يصبح في حالة نفسية مرحة ، وتصبح لديه الرغبة في مشاركتهم وقتهم المرح ، بعدها يعطونه شربته ، فيزداد رقصهم وغناؤهم وتصفيقهم ، ويعلو صراخهم الصاحب عندما يشرع ذلك الرجل في تناول شربته تلك<sup>(١)</sup> .

وعندما يرغب الرجل منهم في السفر ، فإنه لا يحمل معه زاداً ، كما فعله نحن هنا ، أو بالأحرى كما يفعله البدوي المسافر ، ولكنه يأخذ معه قربة أو قريتين ، مملوءة من حليب القرم ، أو غيره من أنواع الشراب ، وكذلك يأخذ اناءً فخارياً ليطنخ فيه خم ما قد يصيده أثناء سفره . وعندما يقتل الرجل صيداً ، فإنه يسلخه ، ويأخذ الكرش ، فينظفه ، ثم يضع فيه ماءً ويطنخه على النار ، ويأكل اللحم ، ويشرب ذلك الماء . كذلك يحمل معه خيمة صغيرة من ليد يقيه المطر<sup>(٢)</sup> .

وإذا ما كان على عجلة من أمره ، للقيام بانجاز مهمة أو مشروع معين يتطلب السرعة ، فإن الرجل منهم يمضى أياماً كثيرة — قد تتجاوز العشرة — دون أن يأكل طعاماً ، ودون أن يشعل ناراً ، وذلك لئلا تعطل مهمته وتستغرق وقتاً أطول ينقضى في طبخ الطعام . وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب القرم ، ونفذ ما يملكه من الشراب ، فإنه يعمد إلى خيله أو دابته التي يركبها ، فيقطع بسكيتته جزءاً من أحد شرايين دم ذلك الحيوان ، فيمتص من الدم المتدفق ما يكفيه ، ثم يعيد ذلك الجرح بفرجه ، أو سده بأي شيء ، كتراب أو ما شابه ذلك .

وقد يحمل المسافر منهم دماً محققاً إذا تعذر وجود ما يحمله معه . وعندما يشعر بالحاجة إلى الشراب ( والشراب هنا يعنى الطعام والشراب معاً ) فإنه يأخذ شيئاً من ذلك الدم الجاف ، فيضعه في قدر أو أنى اناء به ماء ، فيركه حتى يدوب ثم يشربه . كما يحمل معه بعضاً من اللبن المجفف ، وهو الاقط ،

(١) (٢) نفس المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة ، ومن الصفحات

حيث يبلغ زنة ما يحمله الرجل العسكري منهم ، أثناء القيام بمهمة عسكرية ، ما يقرب من خمسين كيلو جرامات . وفي الصباح يصنع له فطورا يتكون من أقط وماء ، حيث يأخذ الواحد منهم ما يقارب وزنه مائتي جرام ، فيضعه في سقاء فيه ماء ، ويحركه أو يتركه ، حيث يتم ذوبانه أثناء السير من عملية الاهتزاز ، فيصبح كشراب العصور ، فيشربه عند الوقت الذي يحتاج فيه للشراب<sup>(١)</sup> .

---

(١) البرود من المعلومات في هذا الموضوع راجع : Marco Polo. "Description of the World", Vol. : I, PP : 171 ff; B. Spuler, "History of the Mongol", PP : 176 - 177.

## اللباس في المجتمع المغولي

### ١ - لباس الرجل :

يختلف لباس المرء المغولي ، الذي عاش في منغوليا قبل وبعد ظهور المغول ، وبرزوهم كقوة ذات سيادة وسلطة دوليتين ، عن لباس أخيه الذي خرج من عزلته في منغوليا إلى أقطار شرقية كانت أم غربية ، كما يختلف لباس الرجل الفقير عن لباس الغني ، سواء من حيث النوعية أو الكمية ، كما يختلف لباس الرجل عما تلبسه المرأة المتزوجة . كما يختلف طريقة ارتداء ونوعية اللباس الذي يستر به جسمه ، أو الذي يقيه لفحات الحرارة الحارقة في فصول الصيف ، وشدة البرد السييرى القارص في الفصول الشتوية .

وعلى وجه العموم ، فإن الانسان المغولى ( ونحن نعنى هنا المغولى القاطن في منغوليا ) يرتدى ملابس ذات طابع متجانس . فهم في مبدأ أمرهم ، وداخل مجتمعهم المغلق لم يكونوا يعرفون ما يسمى به الكاب<sup>(١)</sup> ، ولا قلنسوة البرونس<sup>(٢)</sup> ، ولا العباءة ، أو رداءً واحداً يغطي معظم جسمه . إذ أنهم يعتمدون اعتماداً كلياً في لباسهم على جلود الحيوانات ، سواء من تلك التي يقومون بتربيتها ، أو التي تقع في قائمة صيدهم . فهم يلبسون سترة ، على شكل « بلوزة » قصيرة ، مصنوعة من البقرم ، أو من الخمل ، أو من مادة ذات تشكيلات مطرزة . وهذا النوع من اللباس يشبه العباءة إلى حد كبير ، إذ أنه مفتوح من الأمام ولكن له فتحة أيضاً من الجهة اليسرى حتى الخصر ، ثم يثنى من على منطقة الصدر ، فيربط من الجهة اليسرى برباط واحد ، أما الجهة اليمنى فإنه يحزم بثلاثة خيوط .

ويمكن أن يرتدى الانسان المغولى ( الرجال والنساء اللذان لم يتزوجن )

(١) هو رداء بلا كمين ، ي طرح على الكتفين .

(٢) هي غطاء يرتديه الفرد ، يغطي به الرأس والعنق معاً .

أيضاً نوعاً آخر من اللباس شبيه بالثياب ، ولكنها مفتوحة من الخلف ، أو أن تكون على نفس النمط السابق . وهذه الملابس تكون ، كما قلنا ، مصنوعة من الفراء ، بشتى أنواعه ، حيث يجعل الجزء الشعرى منه إلى الخارج ، إذ يلبسه غالباً في فصل الصيف ، عندما يكون الجو حاراً . وهذا النوع الأخير من اللباس يكون له ذيل من الخلف ، يصل في طوله إلى الركبتين .

وبشكل عام ، فإن الرجل الغنى يلبس لباساً من الفراء في الأوقات الباردة في فصل الشتاء ، وغالباً ما يكون لديه ثوبان منها ، فالأول يجعل جزءه الشعرى إلى الداخل ، أى يكون ملاصقاً لجلده ، والثاني يجعل جزءه الشعرى إلى الخارج ، لكي يقيه شدة قرص برودة الثلوج عند تساقطها ، والرياح الباردة عند هبوبها بيردها الصحراوي من الجنوب ، أو السيبيري القارص من الشمال . وعادة تكون هذه الملابس من جلود الثعالب ، أو الذئاب ، أو القروذ الآسيوية ( التبتية أو الصينية ) ، فيلبسونها قبل خروجهم من المنازل إلى العراء . أما في داخل المنازل ، حيث الجو أقل برودة ، ويميل إلى الدفء ، فأنهم يلبسون ملابس أخف من السابقة .

يقوم الأغنياء منهم ، والذين يرتدون هذا النوع من اللباس ، بتزينها بمنحوت من الخيوط الحريرية الرفيعة والدافئة ذات الملمس الناعم جداً<sup>(١)</sup> .

أما ما يلبسه الفقراء في المجتمع المغولي ، فيكون من جلود الكلاب ، والماعز ، وما شابه ذلك<sup>(٢)</sup> . وتقوم هذه الطائفة من الناس بزخرفة ملابسها بخيوط مادتها قطنية خشنة . وبشكل عام ، فإن المواد الصوفية ، بشتى مصادرها ، تكون عنصراً أساسياً في اللباس المغولي ، وخاصة في الأوقات الباردة . كما يرتدون لباساً ( من الجلد بدون شعره ) يشبه السراويل ، وآخر يلبسونه في مقدمة الرجلين ( على الساقين ) كثير الشبه بما يلبسه رعاة البقر ، والهنود الحمر في أمريكا .

Rubruck, "The Journey...", P : 101.

(١) (٢)

يخلق الرجل المغولى جزءاً من قمة ورأسه ، بشكل مربع ، ثم يواصل الخلاقة من الجوانب الأمامية إلى أسفل ، بشكل مخطط على جانبي الرأس ، حتى يصل إلى الأصداع . ثم يخلق أيضاً صدغيه ، ورقبته حتى أمام فجوة العنق ، ويخلق جبهته من الأمام حتى نهاية العظمة الأمامية ، حيث يترك خصلة من شعره تتدلى إلى أسفل ، حتى حُجُب العينين . أما الشعر الذى من على جانبي الرأس ومؤخرته ، فانه يتركه ، إذ يجعل منه ضفائر ، ثم يعقصها حول رأسه إلى الأذنين (١) .

### ب - لباس المرأة المغولية المتزوجة :

تختلف ملابس المرأة ، خاصة من حيث الكيفية لا النوعية ، عن ملابس شريكها في الحياة من الجنس الثانی ، وكذلك عن المرأة التي لم تتزوج بعد ( أى البت ) . فالمرأة المتزوجة ترتدى بلوزة طويلة ومفتوحة من الجهة الأمامية من أعلى إلى أسفل . أما من حيث النوعية والكمية فلا يوجد فرق بين ما تلبسه المرأة وبين ما يلبسه الرجل .

ولعل الفارق المميز بين الرجل والمرأة المتزوجة هو ما تلبسه الأخيرة على رأسها . وهذا الغطاء ، الذى تلبسه على رأسها يبلغ طوله ذراعاً ، ويكون مصنوعاً من اللحاء ، أو من أغصان الأشجار الرقيقة جداً ، أو من أية مادة شعرية يعثرون عليها . ويصنع هذا الغطاء بشكل ملفوف ، ويزداد في مساحة محيطه من أسفل إلى أعلى ، وينتهي في القمة بشكل مدور ، وتبلغ مساحته من أعلى شبرين . ثم يوضع في نهايته عموداً أو قضيباً طويلاً ورفيعاً ، قد يكون هذا العمود مصنوعاً من الذهب ، أو الفضة ، وغالباً ما يكون من الخشب ، ثم تُزَيَّنُ قمة ذلك القضيب بريش الطاووس ، وجوانبه بريش ذيل البط الخفيف ، أو بأحجار كريمة . ثم يثبت غطاء رأس المرأة هذا في غطاء آخر تحته ، يصل حتى الكتفين ، وذلك بمحاكته بخيط رفيع أو سير جلدى .

Rubruck, "The Journey...", PP : 101 - 102.

(١)

تقوم المرأة بعد ذلك بتغطية لباس رأسها الكبير هذا بأكمله أما بتقزم ، وأما بمخمل ، أو برداء من الحرير ، أو غير ذلك ، بعدها يمكن لها أن تمحضر عند الرجال ، إذ لا يمكنها أن تخرج أمام الرجال دون أن تكون لابسة هذا الغطاء ، والذي يميزها عن غيرها من النساء الأخرى غير المتزوجات . إذ أنه من الصعوبة أن يميز المرء بين الرجال والنساء غير المتزوجات ، وذلك لتشابه نوعية وطريقة اللباس الذي يرتديه كل واحد منهم . وهناك فارق طفيف جداً وهو أن المرأة تلبس بلوزة أطول قليلاً من تلك التي يلبسها الرجل .

أما النساء الثريات ، وذوات اليسار ، فانهن يلبسن غطاء الرأس ذلك محل بأنواع كثيرة من الزركشة ، ثم يشحن ذلك القضيبي بإحكام إلى أسفل بقلنسوة ذات فتحة إلى أعلى مخصصة لهذا الغرض ، ثم بعد ذلك ، تعقد المرأة حصلات شعرها من الخلف إلى المنطقة العلوية من الرأس ، وأخيراً تقوم بربط غطاء رأسها هذا بإحكام بحزام من تحت الذقن .

يصف « وليم البرركي » شكل النساء ، اللواتي يرتدين هذا النوع من الغطاء على رأسهن ، قائلاً بأنهن عندما يمتطين صهوات جيادهن يظهرن لمن يراهن من على مسافة بعيدة وكأنهن كتيبة عسكرية ، يلبس كل فرد من أعضائها خوذة ، ويحمل رمحاً ، لأن ما يلبسه على رؤوسهن يبدو وكأنه خوذة ، وتظهر تلك القضبان على ذراها وكأنها رماح<sup>(1)</sup> .

#### ح - لباس الفتاة المقولية :

أما لباس المرأة التي لم تتزوج بعد ، فانه لا يكاد يوجد فارق كبير بين ما تلبسه الفتاة منهم وبين ما يلبسه الرجل حسباً أسلفنا ، إلا أن شعرها أكثر طولاً من شعر الرجل . وفي اليوم الذي يلي زواجها تقوم بخلق شعرها من وسط رأسها إلى المقدمة . ثم تضع عليه غطاء رأس المرأة ، السابق ذكره ، لتصبح متميزة في مظهرها عن الرجل ، واللائق لم يتزوجن من بنات جنسها بعد ، ثم

Rubrick, "The Journey..", P : 102.

(1)

لستطيع أن تظهر أمام الرجل كغيرها من النساء المتزوجات . وبهذا تكون المرأة قد انضمت مع النساء المتزوجات<sup>(١)</sup> .

تميل المرأة المغولية إلى السمن منها إلى تانسق القوام ، وذلك بسبب كثرة ما تأكله من المواد الدهنية ، على ما يبدو لنا . ويعتبرون المرأة جميلة كلما قلت فطاسة أنفها ، وصغر حجمه . يقول الرحالة الأوربي « وليم البريكى » بأن النساء يشوهن أنفسهن عندما يصبغن وجوههن بأصباغ تجعل النظر اليهن مؤدياً لنعين . ويبدو أن ذلك النظر المقذى في عين « وليم » لا يبدو كما يقول عنه هذا الرحالة لدى الرجل المغولى ، فقد يكون ذلك جزاً من تجميلها ، والحفاظ على بشرة وجهها . كما يذكر « وليم » بأن المرأة المغولية لا تلد لها مولوداً وهي مضطجعة على الفراش<sup>(٢)</sup> .

أما أحذية المغول ، فيقومون بصنعها حسب الطريقة المتبعة لدى غيرهم من الأمم من الجلود ، حيث يجففون ايهاب الثيران ، أو الخيول ، فيصنعون منها أحذية جميلة ، كما وصفها « وليم البريكى »<sup>(٣)</sup> .

لا يغسل الفرد المغولى ملابسه ، كما أنه لا يسمح لأحد بغسلها ، وخاصة عندما يكون الوقت ممطراً أو أن الجو ذو عواصف رعادية . وإن أراد غسلها فيكون ذلك في حالات نادرة جداً ، عندما يكون الجو صحواً . وهنا يذكر الجوينى بأنه من عادة المغول وقوانينهم بالا يغسل أحدهم ثيابه في جدول ماء جار ، والا يجلس في الماء في النهار ، والا يأخذ ماءً في اناء من الذهب أو من الفضة ، وإن غسل ثيابه ، فعليه ألا يعلق ثيابه في الهواء الطلق لتجف . فانهم يعتقدون بأن أى عمل من هذا النوع يزيد البرق والرعد ، فقد يزيد من هطول المطر ، وخاصة في بداية فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف<sup>(٤)</sup> .

(١) نفس المصدر السابق ص . ١٠١ - ١٠٣ والهامشية رقم ٣ ص : ١٠١ ، أنظر كذلك Carpin, "The Mongol History.", pp: 6 - 8.

(٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٩٧ .

(٤) الجوينى ، « جهانكشاهى » ، ص : ١٢٥ ، الترجمة الانجليزية ، ج ١ / ٢٠٤ - ٢٠٥ .

ويقول « ولیم البررکمی - بأن المغول يعتقدون بأن عمل مثل هذا يغضب الرب ، فتمتى وضعوا ثيابهم في العراء لتجف بعد الغسل ، فان السماء ترعد . ومن فعل عملاً من هذا النوع فانه يقع عرضة للضرب ، ويمجدون منه ملبسه ، وذلك لأنهم يخشون الرعد ويهابونه بشكل غير عادى . فعندما تبدأ السماء ترعد فانهم يخرجون كل أجنبي من منازلهم . بعد ذلك يلف كل فرد منهم جسمه في ليد أسود فيختبئون في طياته حتى ينتهى الرعد<sup>(١)</sup> .

يردف الجوينى ، حول هذا الموضوع ، القول بأن السماء عندما تبدأ تقصف بالرعد ، فانهم : « يجعلون أصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت ... » وان لمع البرق بشدة حيث : « ... بكاد البرق يحطف ابصارهم ... »<sup>(٢)</sup> . وفي كل سنة غالباً ما يحدث أن يُصعقُ أحدُهم بصاعقة رعدية ، فإذا ما وقع على شخص ما من بينهم بلاء من هذا النوع فان أفراد مجتمعه يقومون بعمل سئء معه ، وهو أن يطردوا أسرته وكل من يلوذ به وجميع أفراد عشيرته خارجاً عن بقية أعضاء القبائل الأخرى ، فيصبحون منبوذين ، ويعيشون حياة البعير الأجرى لمدة ثلاث سنوات . وطوال هذه المدة ، لا يسمح لأحد منهم أن يدخل مخيم أو مساكن الملك ، أو الأمراء الآخرين . كما يحدث الشيء عينه عندما تقتل الصاعقة شيئاً من أى قطع من قطعان حيواناتهم ، فان أصحاب ذلك الحيوان ، أو الحيوانات المصعوقة يمرون بنفس التجربة لمن مات لهم انسان بصاعقة ، حيث يُطرَدون من مجتمعهم لعدة أشهر . وإذا ما حصل شيء من هذه الأحداث فانهم لا يأكلون طعاماً طوان الأيام الباقية من ذلك الشهر ، وفي نهاية ذلك الشهر يقومون بعمل احتفال بمناسبة انتهاء الشهر المشؤوم<sup>(٣)</sup> .

Kubruck. "The Journey...", P : 103.

(١)

(٢) قرآن كريم ، سورة البقرة (٢) ، آيات : ١٨ - ١٩ .

(٣) الجوينى ، جهانكشاي ، حد ١/ص : ١٦٣ ، الترجمة الانجليزية ، حد ٢٠٥/١ وهي بعنوان :

"History of the World Conqueror", translated by : Prof. J. A. Buyle.

## د — لباس المرأة المغولية المسلمة :

بعد أن خرج المغول من عزلتهم فيما وراء جبال الطاي غرباً ، وجبال خنكاي شرقاً ، وبرروا كقوة دولية سيطرة على مساحات شاسعة من عالمهم في ذلك الوقت ، نجد أن لباسهم قد تغير بشكل جذري ، وتطور من حيث النوعية والكمية ، ومن حيث الشكل العام . فقد كان انفتاحهم على عالم وقتهم المتحضر ، ثم ما جنوه من ثراء — كأصحاب الغنية في تلك المجتمعات — نجد أن المرأة المغولية أصبحت بدیعة اللباس ، غاية في التزين والعناية الفائقة بمظهرها ، فأخذت ترفل في لباس من الحرير الخالص ، يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها ، لا ! بل وله اذيال يرفعها من الأرض عدد من جواربها اللائي يمشين من ورائها لهذا الغرض .

ينطبق هذا ، بشكل أوسع على النساء المغوليات اللواتي خرجن من منغوليا إلى الأراضي الصينية ، أو غرباً إلى إيران وأقاليم القبتشاق والتركستان وما وراء النهر . وحول المرأة المغولية في الأراضي ، التي أصبحت جزءاً من امبراطورية المغول ، في إقليم القبتشاق — وهي أراضي « مملكة القبيلة الذهبية » ، نجدنا الرحالة المسلم شمس الدين بن بطوطة عن نساء ثلاث طبقات في المجتمع المغولي الجديد تتميز كل واحدة من هاتيك الطبقات عن الأخرى .

١ — أولى تلك الطبقات هي طبقة نساء الخان المغولي الحاكم ، في ذلك الأقليم انواسع الأرجاء ، حيث يقون ابن بطوطة بأن كل ملكة ( وهي الخاتون ) تركب في عربة ( وهذه العربة بمثابة بيت لها أو أحد من بيوتها العديدة ) فتجلس وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى « **أُولُون** خاتون » أي وزيرة الملكة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى « **كُجُك** خاتون » أي حاجبة الملكة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار ، يقال لمن البنات ، وهن فائقات الحسن والجمال ، ومتاهيات الكمال في الزينة ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما .

أما لباسها ، فيصفه ابن بطوطة قائلاً بأن ثيابها مصنوعة من الحرير المرصع بالجواهر ، كذلك لباس الوزيرة والحاجبة مصنوع أيضاً من الحرير المطرز بالذهب . أما اللباس الذي تضعه هذه المرأة على رأسها ، والذي سبق ذكره ، فيصفه ابن بطوطة قائلاً بأن « الحاتون » تلبس على رأسها « البغطاق » وهو كثير الشبه بتاج صغير ، يناسب رأس المرأة وحجمها ، وقد زين من قمته بريش الطواويس الزاهي الألوان . أما الحاجبة والوزيرة فعلى رأس كل واحدة منهن مقنعة مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر . أما البنات فعلى رأس كل واحدة منهن قبعة مستطيلة ومخروطية الشكل — بشكل الأقروء ، وفي أعلاها دائرة ذهبية مرصعة بالجواهر ، وريش الطواويس من فوقها ، حيث تزيد من تزيينها .

ب — أما نساء الطبقة الثانية ، في مجتمع المغول الجديد ، فهن نساء الأمراء . ونساء هذه الطبقة كن أيضاً على جانب كبير من الأهمية ، وعلو المكانة . فقد كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور صديقة ، أو لقضاء بعض شؤونها ، أو للتنزه ، أو لتتزل من عربتها ، بعد رحلة ، قد تطول أو تقصر ، حسب مسافة الطريق ، وهي كلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وبين يديها أربع جوار ، قاتنات الحسن ، بديعات الجمال ، رائعات اللباس ، وعندما تسير إلى زوجها فانها تذهب ومعها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ، وقد يكون معها منهن نحو ثلاثين جارية من جواربها يرفعن اذيان ثيابها من خلفها ، لتلا تتعرض للمس تراب الأرض ، أو لشيء من وساحتها ، حيث يتم رفع اذيال هاتيك الملابس من عرى ملحقة بتلك الأذيال مخصوصة لهذا الغرض ، وفي هذه الحالة تمشي المرأة المغولية تلك وهي متبخرة ، وفي جلال عظيم ، يزداد أو يقل حسب مكانتها ومكانة زوجها .

حـ أما نساء الطبقة الثالثة ، فهن نساء التجار والباعة ، وأصحاب الأسواق . وقد شاهدهن ابن بطوطة ، كما شاهد غيرهن . وهنا يحدثنا هذا الرحالة ، قائلاً بأن المرأة ، من نساء هذه الطبقة تكون في عربة من عرباتها الخاصة ، والحيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الخواري قد جعلن خصيصاً لرفع أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجوالها ، وفي حلها وترحالها . وقد جلست وعلى رأسها « البغطاق » وقد رصع بالجوهر الثمين ، حيث قد زين أعلاه بربيش الطواويس ، ذي الألوان البديعة ، فتزداد تلك المرأة جمالاً ورواقاً<sup>(١)</sup> .

---

(١) ابن بطوطة ، « رحلته » ، ٣٣٩ - ٣٤٤ . راجع كذلك : Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, 171; also B. Spuler, "History of the Mongul", P : 175.

### ٣ - المسكن في المجتمع المغولي

#### ١ - الشكل الخارجي للمنزل المغولي :

كان المجتمع المغولي ، وما زال معظم سكان منغوليا في الوقت الحاضر ، مجتمعاً بدوياً ، حيث يعتمد على رعى وتربية حيواناته . فهو مجتمع رعوى بشكل عام ، يعيش حياة التنقل والترحال . لذلك ، فإن الرجل المغول أوجد نفسه مسكناً مناسباً لتلك الحياة الغير مستوطنة لبقعة بعينها ، أو مكان مخصوص يقضى فيه حياته مستقراً ، كما يفعل الرجل الذي ربط نفسه بمكان معين من الأرض لحراثتها و زرعها ، وخصوصاً ما استتبته عليها . لذلك ، فإن الإنسان في مجتمع المغول ، إذا ما حل فصل الربيع شرع بعد العدة للتحرك تدريجياً إلى ناحية المناطق الشمالية من البلاد ، وذلك هرباً من فصل الصيف ، الذي تكون فيه درجة الحرارة شديدة الارتفاع ، ولا يكاد يطبق تحملها . لذلك فإنه يتحرك بمنزله ، أو بمنزله حسب حالته الاجتماعية ، ومواشيه التي تقل أو تكثر ، حسب ظروفه التي تحكم سرعته أثناء رحلته الاصلطافية — أن حق لنا أن نسبها بهذه التسمية . وتندرج درجة حرارة الجو في الانخفاض ، حتى تصل قافلك إلى أقصى ما تستطيعه شمالاً ، سعياً وراء اعتدال الجو ، وثم يعد العشب والكلأ المناسبين ، ثم وفرة المياه ، حيث الأنهار ، والجداول ، والبحيرات ، وفوق ذلك كله اعتدال الجو له ولمواشيه . أما إذا جاء وقت بدأ فيه الجو يميل إلى البرودة ، منذراً بقرب وصول الشتاء ، وبالذات في أواخر فصل الخريف ، فإن المغولي يبدأ رحلة العودة ، حيث يعيد ادراجه متجهاً ناحية الجنوب ، ليقبى نفسه ومواشيته يرد سبيها الشتوى القارص ، وهكذا دواليك على هذه الوتيرة من الحياة التنقلية والترحلة بين الشمال والجنوب . وعلى العموم ، فإن المغولي — وحيثما ذهب — ولأى غرض كان تنقله ذلك أو رحلته تلك ، وحتى ان كان ذلك السفر لغرض الحرب ، فإنه يصطحب معه منزله معمولاً جاهزاً ، أينما ذهب وحيثما مار .

فالرجل المغولى ( أو بالأحرى المرأة المغولية أو هما معاً ) يصنع منزله بصفة أساسية من أغصان الشجر ، ويستخدم الأعواد الخفيفة ، ذات الاستقامة ، كإداة أولية في عمل منزله . فيقوم بتصنيفها ، وحزمها بشكل مرصوص بعضها بجانب بعض ، وفي حالة غاية في الأحكام المترابط والقوة . فيحيكها بصورة تجعل رؤوس الأعواد مجتمعة في وسط سقف المنزل بشكل مخروطي ، حيث تنهى عند أعلاها بكوة ، هكذا ، حتى تنهى عملية بناء المنزل ، وتكون القاعدة ، التي يقوم المسكن عليها ، دائرة من العصى ( أو الخشب ) الغلاظ ، حيث أن تلك الأعواد تحبب حبكاً جيداً ، ثم تربط في تلك العصى بقوة وأحكام . ومن خلال تلك الفتحة أو الكوة العلوية في سقف المنزل ، التي هي مجمع رؤوس الأعواد ، يدخل الضوء إلى داخل المنزل ليضيئه لسكنيه . وكذلك فإن تلك الكوة تخدم غرضاً آخر ، وهو أن دخان نيرانهم الكيف ينفذ من خلالها ، حيث ترقد في وسط أرضية المنزل ، والذي يزيد من شدة كثافة دخان موقدهم ان القوم يستخدمون روث الحيوانات بشكل أساسي في مادة وقود تلك النيران .

ان هذا المنزل ، أو البيت ، شبيه لما رآه وسكنه ابن بطوطة ، أثناء رحلته في بلاد القبلة الذهبية في إقليم القبتشاق ، بل أنه يكاد ينطبق على النموذج العام لمسكن الانسان المغولى ، حيث يقول هذا الرحالة المغربى بأنه أعطى بيت يسمى عندهم ( يعنى عند مغول القبيلة الذهبية ) « الخرقه »<sup>(١)</sup> . وهو عصى من الخشب تجمع رؤوسها فتصبح شبه القبة ، وتعمل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه للدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده ، ومنها ينفذ دخان موقدهم<sup>(٢)</sup> .

بعد ذلك ، وكما سبق وذكر هذا ابن بطوطة ، يقوم المرء المغولى بعمل غطاء

(١) هذه الكلمة في الحقيقة هي « الخركاه » كلمة فارسية تعنى الكوخ ، أو الخيمة ، وقد نعتى السراشق .

(٢) ابن بطوطة ، « رحلة ابن بطوطة » ، ص : ٣٠٠ .

خارجى لبيته ، يصنعه من اللبود الأبيض . ومع هذا ، فهو فى أغلب الأحيان يجعل فوق غطاء منزله من الخارج غطاءً خارجياً آخر ، أى أنه يجعل فوق غطاء بيته المصنوع غالباً من اللبود ، غطاءً ثانياً . وهذا الغطاء الآخر يستخدم فيه مادة الكلس ، أو الصلصال الأبيض . بعد ذلك يقوم بذر مسحوق أبيض ، غالباً ما يكون مسحوق العظام ، ليحعل منزله أكثر تلاءماً وأشدّ يابضاً . وفى بعض الاحيان يجعل المغولى لون منزله من الخارج أسود .

أما المنطقة العلوية ، التى تحيط بالفتحة ، أو الكوة ، وهى مصدر النور والهواء ومنفذ الدخان ، فانهم يزينونها بتشكيلات من الألوان المختلفة ، حيث تجعل منظرها جميلاً . ثم يزين مدخل داره ، والمصنوع ، كما قلنا ، من اللبود ، برسوم وأشكال متعددة الألوان ، تنعكس فيها البيئة المغولية . وغالباً ما تكون تلك الرسوم على شكل طيور أو حيوانات ، بثنى أنواعها ، أو أشجار ، وخاصة من النباتات المتسلقة ، أو مياه ، كالأنهار ، والبحيرات .

قد يقيم المغولى منزله ذلك على الأرض ، وهذه حالة قليلة ، وغالباً ما يكون هذا النوع من المنازل صغير الحجم لكى يسهل عليه رفعه ليوضع على عربة مخصصة ، لقلته أثناء السفر أو التنقل والترحال . ولكنه فى الغالب يقيم فوق عربة مخصصة . وعندما يرغب فى السفر أو الارتحال من مكانه ذلك ، يأتى ببعض حيواناته ، أمام ذلك المنزل ، ثم يربط مقدمة المنزل ( أو العربة المنزلية ) ان صح لنا القول بهذا ، فى رقاب أو ظهور تلك النواب ، وتقوم بجرها وهى مقامة على وضعها . لذلك فهم لا يعانون من بناء منازلهم عندما يحطون رحالهم . وقد يقوم بانزال بيته هذا من على العربة ، فيجعله على الأرض ، وخاصة تلك المنازل التى روعى فيها صغر الحجم عند اضرارها ، حيث يستطيع ذلك ، وبشكل سهل ، لأنه خفيف الحمل صغير الحجم ، وفى هذه الحالة تساعد زوجته ، أو روجاته ( اللاقى يقص من هذه العملية فى أغلب الحالات ، إذ أن هذا النوع من العمل هو من اختصاص النساء عندهم . أما إذا كان المنزل كبير الحجم ، ويراد وضعه على الأرض ، وهذا بطبيعة الحال عندما

يكون وقت الإقامة لمدة أطول فإنه يتساعد على انزائه مجموعة من الناس ،  
يختلفون في العدد باختلاف حجم البيت وكبره .

يختلف حجم منزل ، أو منازل ، الرجل المغولي باختلاف مكانته في مجتمعه  
وبين قومه من ناحية ، ثم مدى ما يتسع به من ثروة وجاه من ناحية ثانية . كما  
يختلف العدد الذي يملكه من هذه المنازل باختلاف العدد الذي يملكه تحت يده  
من الزوجات ، والاتباع والخدم والحشم . فبعضهم لا يملك إلا منزلاً واحداً  
فقط ، صغير الحجم مقاماً على عربة صغيرة أيضاً ، وقد يمتلك المرء منهم أعداداً  
كبيرة من المنازل ، قد يصل إلى أكثر من مائتي بيت ، حسب مكانته وثروته ،  
كما قلنا آنفاً ، إذ أن لكل زوجة من زوجاته بيتاً أو أكثر ، كما أن لكل جارية ،  
أو خادم تحت خدمته بيتاً أو بيتين . وفي الحقيقة فإنه قد يصل عدد البيوت التي  
تملكها إحدى زوجات الرئيس ، أو الخان المغولي إلى أكثر من أربعمئة بيت .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا الرحالة المسلم « ابن بطوطة » ان  
« الخاتون » ( وهو يعني هنا الملكة زوجة الخان المغولي محمد أزيك )<sup>(١)</sup> يمشي  
وراء عربتها مائة عربة ، في كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار  
والصغار ، وخفف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل  
خزائن الخاتون ، وثيابها ، وأثاثها ، وطعامها ، ومع كل عربة غلام موكل بها ،  
وهو متزوج بإحدى الجوارى ، إذ لا يقبل من لم يكن متزوجاً ان يخدم في  
العربات المنزلية تلك<sup>(٢)</sup> .

أما « وليم الربركي » فقد سبق وحالتنا المسلم ابن بطوطة بما يقارب مائة  
سنة ، فعدد لنا منازل المغول ، إذ يذكر بأن الأمير « باتو » كان يملك ستاً

(١) هو أحد الخانات لغول الذين حكموا مملكة الغول المعروفة في التاريخ . « القبيلة الذهبية » حكم  
من سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣ م إلى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤١ م . وهو كما يعرف اعتنقوا الإسلام وحكموا  
وساروا بمنهج في شتى مناحي حياتهم .

(٢) ابن بطوطة « رحلته » ، ٣٣٤ . أنظر كذلك : Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, P: 8; Rubruck, "The Journey...", 93 - 5.

وعشرين زوجة ، وان لكل زوجة منهن منزلاً كبير الحجم خاص بها ، ولا يدخل ضمن ذلك العدد الكثير من البوتات الصغيرة الحجم ، التي توضع إلى الخلف من كل منزل كبير<sup>(١)</sup> . أما من حيث جمال هاتيك المنازل المغولية فيذكر بأنها غاية في الجمال ، ولعله كان يقصد بذلك النوع الجميل منها تلك التي يمتلكها الأمير « باتو » . ثم يقول بأن المرأة تقوم ببناء بيت خاص بها على عربة . يصف لنا الرحالة الأوربي « وليم البريكسي » ذلك المنزل بأنه غاية في الأحكام ، وأنه عمل متقن ، وأنه في منتهى الجمال ، بحيث أصبح من الصعب عليه أن يقوم بعمل رسم أو وصف كامل لجمال ذلك المنزل ، الذي تصنعه المرأة المغولية لنفسها ، كما أنه ويتمنى بأنه كان رساماً ، ليرسم لنا شكله الرائع ، ومنظره البديع<sup>(٢)</sup> .

أما حجم المنزل المغولي ، فكما قلنا ، يتراوح ما بين الصغير ، والمتوسط ، والكبير . فالصغير منها يقام على عربة صغيرة يجرها حيوان واحد وهذا الحيوان قد يكون حصاناً ، أو ثوراً ، أو جملأ . أما الكبير منها فقد يبلغ عرضه ، من جانب إلى الجانب الآخر ، ما يقارب تسعة أمتار ( أى ثلاثين قدماً تقريباً ) . وقد قام السفير القس « وليم » بقياس المسافة التي تفصل بين عجلتى العربة ، من جانب إلى الجانب الآخر ، فوجد أنها حوالي ستة أمتار ( أى عشرين قدماً ) ، لذلك فالمنزل المقام على عربة من هذا النوع ، يبرز عن عجلة العربة مسافة أكثر من متر ونصف المتر ( بحصة أقدام ) من على كل جانب من جوانب العربة<sup>(٣)</sup> .

فإذا ما أراد المرء منهم الرحيل من مكان أقامته إلى مكان آخر وأراد أن يستخدمه لهذا الغرض ، حيث تقوم الحيوانات بحر هذه المنازل ، الصغير منها

Rubruck, "The Journey. ", 95.

(١)

(٢) عن المصدر ، والصفحة ، وكذلك الصفحة السابقة لها

(٣) نفس المصدر السابق ، والصفحة ، أنظر كذلك "Marco Polo, "Description of the World".

Vol. 1., PP. 168-9; B. Spuler. "History of the Mongol". P. 172

والكبير على حد سواء ، ويختلف عدد هذه الحيوانات المستعملة لجر هذا النوع أو ذاك من المنازل ، باختلاف حجمه . فالمنزل الكبير — مثلاً — قد يُستخدم لجره اثنان وعشرون ثوراً ، حيث يوضع أحد عشر ثوراً ، جنباً إلى جنب ، في صف عبر حجم عرض العربة ، بينما توضع الأحد عشر ثوراً الأخرى أمام الأولى ، فتجر المنزل بحبال مثبتة بأحكام في سارية كبيرة جداً ، توضع في مقدمة العربة ، وهي عادة في حجم سارية السفينة . ويقف السائق في باب المنزل يدير عملية السير أثناء هاتيك الرحلة ، دون عناء يذكر<sup>(١)</sup> .

عندما يحط المغول رحلته ، فإنه يقم منازلته متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب ، ثم تقوم الزوجة الكبرى ( أى الزوجة الأولى ) بإقامة منزلها في أقصى الجهة الغربية من الخيم ، ثم يلي منزلها منزل الزوجة التي تحتل المرتبة الثانية ، ثم التي تليها ، ثم التي تليها ، وهكذا ، واحدة تلو الأخرى — حسب درجتها — حتى الزوجة الأخيرة التي يكون منزلها في آخر الخيم من جهته الشرقية . ويفصل كل بيت عن البيت الآخر مسافة ترمية الحصاة . كما يذكر لنا ذلك « ولیم البرکمی » ، في رحلته المشهورة تلك ، ويجعل بيت سيد الخيم إلى الناحية الشمالية من منزلها ، ويبيت النساء إلى الناحية الشرقية ، أى إلى اليسار من رحالهن عندما يجلسن أحدهم في داره ، وهو متجه إلى الجنوب ، وتقام منازل الرجال في ذلك الخيم إلى الجهة الغربية ، أى إلى اليمين من منزل الرئيس . بناءً على ذلك ، فإن منازل الرجل المغول ، وخاصة الأمراء وعليه القوم ومشايخ العشائر ، تبدو وكأنها مدينة ، ولكنها قليلة السكان من الرجال<sup>(٢)</sup> .

هناك نوع آخر من بيوت العربات ذات الحجم الصغير ، حيث يقوم بجر هذا النوع حيوان واحد فقط ، جواد أو جمل ، أو غيرهما ، ولكن غالباً ما

Rubruck, "The Journey...", 94.

(١)

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة . وقد طُفرت كلمة « أوردا Orda » على ذلك خيم المغول . وهذه الكلمة « أورده Ordo » كلمة تركية مغولية ، تطلق على مناطق بقرة هذا الرجل ، أو دوت الأمير ، أو أراضي مساكن العشيرة المغوليين .

يكون جملاً ، وهذا النوع من العربات المنزلية مخصوص لتقل الفراش ، واللباس ، وما على ثمنه ، من أنواع الزينة ، من ذهب وفضة ، وغير ذلك . ويوضع هذا النوع من حاجيات المغول في صناديق يصنعونها أيضاً من فروع وأغصان الأشجار ، ذات الاستقامة خصيصاً لهذا الغرض . ثم يصنعون لكل صندوق غطاءً أو سقفاً مدوراً ، من نفس تلك الأعواد ، والعصى الصغيرة ، ثم يجعلون لها باباً صغيراً في نهايته من الامام ، وبعد ذلك يغطونه بلبد أسود اللون ، وميلول إما في حليب الغنم ، أو بالودك ( وهو الدهن الذائب من شحم الحيوانات — أو الحميس ) وذلك لتحمي محتويات ذلك الصندوق من أن يصلها المطر ، أو أن تبتل بالماء ، عند عبور نهر أثناء السفر أو التنقل والترحال .

يقوم المغول بتلوين هذه الصناديق برسوم وصور ذات ألوان زاهية ، وأشكال مختلفة . ويعملون هذه الصناديق في تلك العربات المنزلية حيث يقومون بربطها بأحكام ، وتمثل تلك العربات حرراً مكيناً لها ، فلا تنزل عند حط الرحال ، وإنما تظل داخل العربة ، وتؤخذ الأشياء أو الحاجيات من داخل تلك الصناديق ، وتمعاد على حالها السابق ، كما كانت عليه ، بكل سهولة ويسر ، وذلك من خلال أبوابها الموجودة في الأمام<sup>(١)</sup> .

تصنع هذه العربات بشكل عال بخلاف بقية العربات ، وذلك لتناسب ربطها في ظهور الجمال التي تقوم بنجها ، ثم لكلا يصلها الماء عندما يعبر المغول نهراً ما ، أثناء الترحال ، من مكان إلى آخر .

وفي الحقيقة ، فإن المغول لا يعتبر رجلاً مسافراً عندما يتقل من مكان إلى آخر ، فهو مسافر ، وهو في نفس الوقت مقيم ، لأنه يسكن داخل منزله الذي تحمله العربات ونجره الدواب ( خيول ، أو أبقار ، أو جمال ) ، فهو « ... » ،

Rubruck, "The Journey." : 94.

(١)

Ibid., P : 94.

(٢)

يقفل فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب ، وهو في حال سيره ، والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت ... (١)

وإذا ما كان المغول في حالة السفر ، فانهم في أغلب الأحيان يسرون في شكل مجموعات ، شبيهة بالقبائل الإسلامية في درب الحجاز ، يرحلون وقت صلاة الفجر ، وينزلون في وقت الضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون في وقت العشي ، وإذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر من على العربات ، وسرحوها للرعى ليلاً أو نهاراً (٢) .

وعندما يحط المغول الرحال فانهم يضعون واجهات منازلهم بالشكل الذي أوضحنا أعلاه ، حيث يقومون بترتيب تلك العربات المثلية ، والمخصصة لحمل الصناديق الخاصة بأشياءهم الثمينة ، صفيين من المنازل ، والعربات الأخرى ، وتبدو وكأنها بين حائطين (٣) . وكلما كثر عدد زوجات الرجل المغولي ، وزاد ثراؤه كلما ازدادت منزله من هذا النوع وذلك . لذلك فانه يبدو محيم رجل موسر وكأنه مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء . كما أن تلك الخيمات غالباً ما تكون كثيرة النساء والاتباع ، وقليلة الرجال جداً (٤) .

بعد مضي أكثر من مائة سنة من رحلتي « جيون البلانو الكريني ووليم البربركي » يصف لنا الرحالة المسلم « ابن بطوطة » المنزل المغولي الذي يقام للسكنى في إقليم « الدولة الذهبية المغولية » ذلك الوصف الذي لا يكاد يختلف عن ذلك المنزل ، الذي كان يسكنه المغول ، في موطنهم الأصل ، في منغوليا ، منذ مئات السنين . ويبنى البيت على شكل قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض ، يسيور من الجلد الرقيق ، ثم يجعل على عربة خاصة لحمله في

(١) أنظر ، ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص : ٣٣٤ ، أنظر أيضا الصفحات : ٣٣٠ - ٣٣١

(٢) نفس الملاحظات الثلاث السابقة ، ونفس الصفحات .

(٣) Rubruck, "The Journey...", 94.

(٤) Ibid, P. 95.

الحل والترحال ، حيث أنها خفيفة الحمل . ثم تكسى من الخارج باللبود أو الملف ، وهو من الجوخ ، ويكون فيها طبقات مشبكة ، أى شبايك عليها ستار مخمل ، بحيث يستطيع من يجلس في داخل هاتيك المنازل من رؤية الناس في الخارج ، في حين لا يستطيع أحد أن يرى من في داخل تلك المنازل . وهى تنقل على عربات ، ذات عجلات ، بحيث يكون لكل عربة منها أربع بكرات كبار . ومن هذه العربات ما يجره جوادان ، أو فرسان ، ومنها ما يجر بأكثر من ذلك . كما تجرها أيضاً البقر والجمال ، حسب حال العربة الواحدة ، من حيث حجمها ، ومن حيث ثقلها أو خفتها . أما السائق فانه يركب في مقدمة العربة ، على سرج معد ومرمخ ، وفي يده سوط يحنها به للمشى قدماً ، وعود كبير يوجهها به إذا ما عاجت عن القصد ، أو انحرفت عن الوجهة التي يريدتها .

وقد شاهد « ابن بطوطة » قافلة مغولية من هذا النوع ، تنتقل من مكان إلى آخر ، فيصفها لنا قائلاً : « وأقبلت القافلة<sup>(١)</sup> ، ويسمونها الأرد<sup>(٢)</sup> ، بضم الهزرة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعداً في الهواء ، وهم يطبخون في رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة الحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت<sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) يعنى قافلة الركاب عندما يرتحل القوم بمنزلهم ويحلون في مكان جديد .  
(٢) مر معنا سابقاً كلمة « أوردو » وليس « أرد » كما ذكرها ابن بطوطة . وهى كلمة تركية مغولية ، تعنى العظيم وساكته ، أو موطن قوم ينزلون في مكان معين . وعادة نطلق عن كل بهم مغولى تحت رئاسة إحدى زوجات أمير ما . وقد عجم معناها هنا ، فسميت كل الركاب وما حمل . كان « بركة خان » ( ٦٥٥ - ٦٦٥ هـ / ١٣٥٧ - ١٣٦٦ م ) أول مغولى أسلم ، وقد نشر مغولى « إقليم القبايق » الإسلام ، وأضحى سكان هذا الأقليم مسلمين . وقد زار ابن بطوطة ذلك القطر المسلم أيام السلطان محمد أورد بك التاسع .  
(٣) أنظر رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

## ب - الشكل الداخلي للمنزل المغولي :

لبيت المغوي صفة معينة ، وترتبا خاصاً يظهر به من الداخل ، لذلك فإن ترتيب أى منزل ينطبق بخلافه على المنازل المغولية الأخرى في شتى أنحاء أقاليم منغوليا سواء أكان ذلك قبل خروج المغول من عزلتهم التي كانوا يعيشونها ، أو فيما بعد ذلك . فلو دخل المرء بيتاً واحداً ثم ذهب إلى بقية المنازل الأخرى لوجد نفس النظام ، وعين الترتيب ، كلها على وتيرة واحدة ، وشكل موحد ، حيث يقوم المرء المغوي بتقسيم منزله من الداخل إلى أقسام معينة كل قسم منه مخصص لأداء غرض معين من الأهداف الاجتماعية هناك ، فنجده مخصص لكل قسم من أسرته ، أو ضيوفه ، أو خدمه ، أو أطفاله ، أو حاجياته ، أو أمتعته ، أو حيواناته ، مكاناً معيناً في داخل ذلك المنزل . فلو تصورنا المنزل على شكل خيمة كبيرة مدورة الشكل ، حيث هو الطابع العام للمنازل المغولية ، يفتح بابها إلى الجوانب ، إذ قد تكون هذه الظاهرة الاجتماعية من أهم مميزات منازل المجتمع عندهم ، وجعلنا أرضها من الداخل أربعة أقسام ، وذلك بوضع خط من منتصف مدخل الباب ، وحتى نهاية الخيمة ، ثم قسمناه بخط آخر من المركز واتجهنا بالخط يمينا ويساراً حتى نهاية المساحة الأرضية ، التي تحتل الخيمة أرضها ، نسهل علينا معرفة نظام منزله من الداخل . فنبدأ من مدخل الباب ، ونتجه يمينا ثم يدور في داخله دوره كاملة حتى نخرج من الجهة اليسرى للباب .

عندما يدخل المرء من الباب ، فإنه أول ما يجد على يمينه وعلى يساره مكاناً وقد خصص للحيوانات الصغيرة ، كالأغنام ، والماعز ، ... الخ . يليها مباشرة مكان جعل مخصصاً للخدم والفقراء ، نوضع الأواني والأمتعة المنزلية إلى الجهة اليمنى مجاورة لخافة المنزل ، ثم يجلس أمامها النساء من أهل البيت ، يقابله من اليسار في الناحية الثانية مكان مخصص لجلوس الرجال ، وهو يقع في الجهة الثانية المعاكسة . أما النساء الزائرات فقد جعل في مكان أمام النساء الجالسات إلى اليمين حيث يقابله من الجهة الثانية من البيت ، أى إلى اليسار ، مكان

خصص مجلساً للرجال . أى أنهم يجلسون أمام الرجال من أهل البيت ، كنوع من إكرام الضيف ، أو الزائر ، وذلك باجلاس الزائرين ، رجالاً كانوا أم نساء ، في مقدمة صفوف الجالسين من أهل البيت . أما موقد النار ، فإنه يحتل المركز الوسط من البيت المغولى . ثم يلي المساحة المخصصة لموقد النار ووقودها ، مكان جعل لجلوس الأقارب ، ثم بعده مكان الأطفال ، ثم مكان جنوس المضيقة ( أى صاحبة المنزل ) ، ثم يليه مكان المضيف ( أى صاحب البيت ) . يقابل هذين المكانين المخصصين لرب البيت وسيدته ، في الجهة المقابلة ، مكان مخصص لضيف الشرف من الزائرين لهذه الأسرة ، حيث يقع هذا المكان إلى اليمين من مجلس صاحب الدار ، عند جلوسه وهو متجه إلى ناحية الجنوب ، إذ أنه يجلس على هذه الهيئة على الدوام . أما المكان المخصص للمخدع ( أى فراش النوم ) فهو في آخر أرضية المنزل . ثم إلى الخلف ، من المكان الذى جعل لضيوف الشرف ، توضع الحفائب ، والأمتعة الجلدية ، والمواد الغذائية ، وإلى الخلف منها تعلق تماثيل الآلهة<sup>(١)</sup> .

يلتق المغولى صورة مجسدة تتدلى من أعلى المكان الذى يجلس فيه صاحب الدار ، ويسمى هذا التمثال « أخو صاحب المنزل » ، كما يلتق فوق المكان الذى تجلس فيه صاحبة المنزل تماثلاً آخر على نفس النمط ، ويسمى « أخو صاحبة المنزل » . ويعلق في الوسط بين هذين التمثالين — وإلى الأعلى منهما ، تماثلاً ثالثاً أقل سماكة وحجماً من التمثالين الآخرين . ويعتبر المغول الوثنيون أن هذا التمثال الصغير هو الحارس لجميع البيت ومحتوياته<sup>(٢)</sup> .

وعلى العموم ، فإنه يمكن أن نعتبر النصف الأيسر من البيت ( أى عندما يكون الاتجاه إلى ناحية الجنوب ) مكاناً مخصصاً لجلوس النساء ، سواء أكن من نساء وعارم صاحب الدار ، أو من النساء الزائرات ، في حين نجد أن النصف الأيمن ، من ذلك المنزل قد جعل مكاناً خاصاً للرجال ، سواء من أهل

Rubruck, "The Journey. .", P : 95.

(١)

Ibid, P : 95.

(٢)

الدار ، أم من الرجال الزائرين . أن سيده البيت ، في المجتمع المغولي ، يكون لديها مسند ، أو مخدة ، مصنوعة من جلد الماعز ، ومحشوة من الداخل ، أما بالقش الناعم ، وأما بصوف الأغنام أو بشعر الماعز الناعمين ، حيث تجعله في مكان مرتفع قليلاً ، وعليه تمثال صغير متجهاً ناحية النساء<sup>(١)</sup> .

يوضع عند المدخل إلى قسم النساء تمثال ومعه مجسدة لضرع بقرة ، وهذا التمثال خاص بالنساء اللواتي يقمن بحلب وضرب الأبقار ، لأن هذه المهمة تعتبر من وظائف النساء . كما يوضع عند المدخل إلى قسم الرجال تمثال آخر ، ومعه تمثال لضرب فرس ، وهذا التمثال مخصص للرجال الذين يقومون بحلب وضرب الأفراس ، حيث أن هذه العملية غالباً ما يقوم بها الرجال<sup>(٢)</sup> .

عندما يجتمع المغول على شراب ، فانهم ينثرون التضحيات الأولى من شراهم لتلك التماثيل ، فيبدأون أولاً بالنضح على ذلك التمثال المتدلى من على رأس سيد الدار على اعتبار أنه كبير التماثيل ، لوضعه متديلاً فوق مجلس رب المنزل ، ثم التماثيل الأخرى بالدور ، وعلى التوالي واحداً بعد واحد حسب مكانة هذا التمثال ووضعه بين التماثيل المغولية الأخرى . بعد هذا يخرج الخادم إلى خارج المنزل يحمل كأساً وبه شراب ، فينضح بشيء منه ثلاث مرات إلى ناحية الجنوب ، مع ثني ركبته في كل مرة عندما ينضح ، ويعتبر ذلك النضح بالشراب إلى جهة الجنوب تشريفاً للنار . ثم يكرر الخادم نفس الحركة تلك باتجاه الشرق ، تشريفاً للهواء ، ثم إلى الغرب ، تشريفاً للماء ، ثم إلى الشمال تشريفاً للموتى . ثم بعد الانتهاء من هذا النوع من الطقوس يعتبرون أن الإلهة قد أخذت نصيبها من ذلك الشراب ، وقد شرفوا الهواء والماء واسلافهم من الموتى ، وهنا يشرعون في احتساء الشراب ذلك<sup>(٣)</sup> .

1bid. P . 95 - 6.

1bid. P . 95 - 6.

1bid. P : 95 - 6.

(١)

(٢)

(٣)

## قائمة مصادر البحث ومراجعته

أولاً : المصادر :

١ - المصادر الاسلامية ، العربية والفارسية :

- ١ - ابن الاثير ، عز الدين علي بن أبي الكرم ، « الكامل في التاريخ » ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ( عربى اللغة ) .
- ٢ - ابن بطوطه ، أبو عبد الله محمد « رحلة ابن بطوطه » ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ( العربية ، ولها ترجمات إلى لغات شتى منها الانجليزية ) .
- ٣ - الجوينى ، علاء الدين عطا ملك ، « تاريخ جهانكشاي » أو « تاريخ فاتح العالم » تحقيق الأستاذ المرحوم ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ هـ / ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ م ( فارسى اللغة ) .
- ٤ - رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ، « جامع التواريخ » ، جزءان ، تحقيق د . بهمن كرمى ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش . ( فارسى اللغة ) ، وله ترجمات إلى بعض اللغات منها الروسية والانجليزية والعربية وغيرها .
- ٥ - ابن العبرى ، كريكورى أبو الفرج الملقب « تاريخ مختصر الدول » أو « مختصر تاريخ الدول » تحقيق صالحانى ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ترجمة المؤلف ابن العبرى من لغته الأصلية السريانية إلى اللغة العربية .
- ٦ - القزوينى ، حمد الله المستوفى ، « القسم الجغرافى من كتاب ( نزهة القلوب ) ترجمه إلى الانجليزية المستشرق ج . لومستريج ، ليدن ١٩١٣ م . ( الفارسية مترجم إلى اللغة الانجليزية ) .
- ٧ - مجهول المؤلف ، « التاريخ السرى للمغول » ، أو « تاريخ سرى

مغولان » ، ترجمته عن الفرنسية الدكتور شيرينى بيانى ، طهران ،  
١٣٥٠ هـ . ش . ( الصينية مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى  
الفارسية ) .

ب — مصادر بلغات غير اسلامية ( الانجليزية والمترجمة إليها ) :

Benedict, Brother, "The Narrative" Ed., by : Ch. Dawson, Under — A  
the title "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

Carpini, John of Plano, "History of the Mongols" Ed. by : — ٩  
C. Dawson, Entitled : "The Mongol Mission", London and  
New York, 1955.

Jawaini, 'Ata Malik, "The History of the World Conquoror" — ١٠  
Translated from Persian into English by : Prof. J.A. Boyle,  
Manchester University Press, Manchester, 1958.

Polo, Marco, "The Description of the World", translated and — ١١  
edited by : Ch. Moule and Paul Pelliot, London, 1938. Vol. 1.

Rashid al-Din, Fadl ullah, "The Successors of Genghis Khan", — ١٢  
translated from the Persian by Prof. J.A. Boyle, New York, 1971.

Rubruck, Friar William, "The Journey of William of Rubruck to — ١٣  
the Eastern Part of the World, 1253 - 1255, with two accounts of  
the earlier journey of John of Pian De Carpine, W. W. Rockhill,  
London, 1967.

Rubruck, F. W. "The Journey of William of Rubruck" with the — ١٤  
title : The Mongol Mission, Edited by Ch. Dawson, London and  
New York, 1955.

Unknown, "The Secret History of the Mongols" translated from —١٥  
the Chinese by Aurthur Wally, London, 1963.

ثانيا : المراجع الحديثة :

١ — مراجع باللغة العربية :

١٦ — الغامدي ، سعد محمد حذيقه « سقوط الدولة العباسية » بيروت  
١٤٠١ هـ .

١٧ — « معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها » مجلة العصور ، المجلد الثاني ،  
الجزء الأول ، جمادى الأولى ، ١٤٠٧ هـ ، ص . ص : ٧٥ —  
٩٤ .

ب — المراجع باللغة الانجليزية :

١٨ — Barthold, W. W. "Four Studies on the History of Central Asia"  
Leyden, 1962.

١٩ — De Rachewilts, Igor, "Papal Envoys to the Great Khans",  
London, 1971.

٢٠ — Micheli, Silvio, "Mongolia in Search of Marco Polo and other  
Adventures", translated from the Italian by : Bruce Penman,  
London, 1967.

٢١ — Newton, A.P. "Travel and Travellers of the Middle Ages",  
London, 1930.

٢٢ — Petrov, V.P. "Mongolia, A Profile", London, 1970.

٢٣ — Rass, Sir E.D. "Prester John and the Empire of Ethiopia", Travel  
and Travellers in the Middle Ages, Ed., by Newton, London, 1930,  
PP : 174 - 194.

ثالثاً : الدوريات والمجلات :

٢٤— مجلة قافنة الزيت ، المجلد الحادى والثلاثون ، ١٤٠٣ هـ .